من بيروت الى الهند

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

٩ طور عبدين – الجزيرة – زاخو (تابع)

كنّا قبل خروجنا من مديات ابرقنا الى السيد عمنويل يوسف رئيس اساقفة سعرت لينبئنا عن الطريق امينة فلم يأتنا جوابهُ وذلك ما حدا بنا الى ان نقدّم سفرنا الى الجزيرة. ثم علمنا بعد ذلك بان الجواب كان سلبيًّا الّا انّ ادارة البريد ضبطتهُ لئلّا ينتشر خبر ثورة الاكراد على النصارى

يوم الاثنين الواقع في ٤ تشرين الثاني سرنا في وسط طور عبدين قاطعين حزونهُ وبطونهُ بين اشجاره من العنص والبلوط والبطم وكانت الطريق مقفرة لم نعاين فيها من وقت الى آخر غير افراد من الحطّابين او بعض المكارين من الاكراد. ولقينا غير مرّة ايضاً في تلك الجهات الى الموصل بعض النفر اليزيديين المعروفين بعبدة الشيطان وهم قوم يسكنون في جنوبيّ طور عبدين في جبل سنجار من ولاية الموصل ولهم من العادات الغريبة والتقاليد الخرافيّة المستترة ما كشف عنهُ التناع علماء زماننا. وقد سبق حضرة الاب انستاس الكرملي سنة ١٨٩٩ ودوّن في المشرق (٢ : ٣٢ الخ) من الفصول المسهبة في تعريفهم واوصاف احوالهم ما يغنينا عن التكرار

حللنا في مساء النهار في دير للسيامقبة يُعرف بدير المُنر وهو دير كبير ذو ابنية قديمة محصّن في وجه شذّاذ الاكراد ولهُ كنيسة قديمة على طرز كنائس القرن الخامس او السادس للمسيح يُنزل اليها بالدرج وتسندها السواري الضخمة. وكانت هذه الكنيسة غنيّة بحليّها وآنيتها فمرّ بها تيمورلنك في اواخر القرن الخامس عشر واخذ مصاغاتها

ورهبان دير العمر قليلون يقضون مظم نهارهم في استثمار املاكهم ولا يكادون يعرفون غير القراءة البسيطة في العربية والسريانية وليس عندهم مكتبة. وكان اسقف مديات يوم مرورنا نازلًا بينهم ليتقاضى منهم الاعشار فلم نجده ارقى كثيرًا من رهبان الدير وباعنا بنفسهِ علوفة دوابنا ولم يجد ما يباحثنا فيهِ غير امورهِ الماديّة

وفي هذا الدير سربٌ مظلم تحت الارض في جدرانهِ وجوانبهِ اجران مكلسة

يزعمون انَّ فيها عظاماً للشهداء. لم يستطع الرهبان ان يفيدونا شيئاً ثابتاً من اخبارهم وهم يدعونهم شهداء المصريين

وفي غدٍ توجهنا الى جهة الشرق قاصدين أزَخ ومررنا عند الظهيرة بقرية يسكنها اليعاقبة وجدهم تدعى باسبرّينا موقعها على تلّ وفيها ايضاً كنيسة قديمة وبعض كتب طقسية ثمينة تضعضعت فابتاعها الاميركيون. وكانت نواحي باسبرينا في سالف الأيام حافلة بالاديرة والنسّاك وكلّها اليوم اثر بعد عين ورُبَما بقي من تلك الاديرة بعض اطلال او قسم من ابنيتها كدير مار اوكين وفي الغالب لا يسكنها الّا راهب واحد لنظارة ارزاقها. وفي جنوبي دير العمر آثار قصور شاهقة وابنية تخصّ منها بالذكر قصراً يُعرف بقصر حاتم الطائي والتقليد عند الاهلين انَّ بني طيّ كانوا يسكنون تلك الجهات وانَّ حاتماً سيدهم ابتنى لهُ ذلك القصر

ثم خرجنا من طور عبدين وانحدرنا الى البطائح التي يسقيها نهر دجلة وبعض سواعده وهناك تبتدئ المعاملة التي كان يدعوها قدماء السريان بازّبدى او بيت زبدا الشهيرة بخصبها

أزَخ بلدة صغيرة ذات ٤٠٠ بيت كانوا سابقاً يعاقبة دون استثناء. فلمّا جاء عمر باشا نحو سنة ١٨٤٠ لمحاربة الاكراد في جهات الجزيرة حالفهُ اهل ازخ وحاربوا معهُ اعداء الدولة لكن الاكراد اضمروا لهُ الشرّ وانتهزوا الفرصة بعد حين للاغارة على ازخ تحت قيادة اميرهم بدرخان فنهبوا وحرقوا واستاقوا الى السبي النساء والاطفال. وصرخ الازخيون الى الدولة فلم يكن من مجيب فطلبوا من المرسلين الكاثوليك ان يساعدوهم على فكّ اسراهم ووعدوهم بالانتماء الى الكثلكة اذا توفقوا في مساعيهم. فصار الاب ويكدُنّا اليسوعي في صحبة المسيو بوره .Mr E (Boré المنوط بسفارة فرنسة في الاستانة (وهو الذي بعد ذلك دخل في الاخوية اللازارية وصار عليها رئيساً عاماً ودخل كلاهما على بدرخان امير الاكراد وبحسن سياستهما ادركا غايتها وكسرا اغلال اسرى أزخ. اما اهل أزخ فلم يقوموا بوعدهم الّا نحو ٣٠ عائلة ارتدّوا الى حجر الكنيسة بهمّة الآباء الدومنكيين نحو سنة ١٨٨٠ فابتنى لهم الآباء معبداً صغيراً وفتحوا لهم مدرسة وهم اليوم متسكون بدينهم يزورهم المرسلون حيناً بعد حين. فنزلنا هناك تلك الليلة واتانا احد رهبان اليعاقبة

ببعض مخطوطات سريانية فابتعناها منها كتاب لغة سرياني بتصاوير ملوّنة وكتاب ايروتاوس تلميذ بولس الرسول وتماثيله الموهومة

المسافة من أزخ الى الجزيرة خمس ساعات في ارض سوية ذات تربة حسنة ومزارع نامية قطعناها في صباح النهار فبلغنا الجزيرة ساعةً قبل الظهر وحططنا الرحال في دير الاباء الدومنيكيين وكان يومئذٍ رئيسهم هناك حضرة الاب غلّان الذي كنّا اجتمعنا به سابقاً في فرنسة في دير فلاقيني سنة ١٨٧٥ وهو اليوم احد الزوّار الرسوليين في الرهبانيات المارونية الكرسية في لبنان. فاستقبلنا بكل لطف متحفياً بنا واخذ بمعالجة الاب يوسف شلفون رفيقي الذي كان عاوده المرض بعد خموده فنال الشفاء التامّ على يد حضرة رئيس الجزيرة

قضينا ثلاثة أيام في الجزيرة وكانت نيتي ان نسافر منها الى سعرت لانّ الاخبار الواردة منها ومن ديار بكر وماردين كانت لا تزال متناقضة. فمنها ما يقلق البال ويزعج الافكار ويروي نهباً وسلباً وقتلاً وضرباً ومنها ما كان على خلاف ذلك مطمئناً للقلوب نافياً لكلّ خطر. فاحببت ان أطّلع على صدق الخبر وصحّة الامر فذهبت مع اخي الى زيارة القائمقام وطلبت منهُ ان يرسل ضابطين في رفقتنا الى سعرت حسب منطوق بيوراردي والي ديار بكر. فبقي القائمقام واجماً ثمّ اقبل عليّ ليردّني عن هذا السفر الشاقّ دون ان يقرّ بما كان هناك من الفتن والمشاغب فالححت عليهِ حتى صرّح لي قائلاً: « ان كان لا مناص من هذا السفر فانتم وشأنكم امّا انا فلا اقبل عليّ المسؤلية في ذلك » فاتضحت لي حينئذٍ صحة الاخبار الواردة عن المذابح وغارات الاكراد في تلك الجهات. ومن ثمّ عدلنا عن السفر الى سعرت وكتبت الى سيادة مطرانها معتذراً لهُ عن اهمال زيارتهِ

وكانت سعرت في تلك المدّة اضحت في حالة حرجة فانّ الأكراد كانوا نهبوا ضواحيها وقتلوا فيها بعض الفلّاحين النصارى ودخلوا دير مار يعقوب للكلدان الكاثوليك وسلبوا امواله وحاصروا سعرت طالبين قتل المسيحيين الذين فيها. وكان الامر تمّ لولا قرينة الفريق التي كانت نصرانيّة فرنجية فالتجأ اليها السيد عمنويل يوسف توما فانقذت النصارى من ايدي اولئك الوحوش الضراة بعد ان قضى المسيحيون ثلاثة اسابيع قاسوا فيها امرّ الاهوال

وبينما كنّا نحن ساعين في انجاز مقاصدنا كان رؤساؤنا في بلاد الشام في غاية الهمّ وانشغال البال بسببنا فانّ مكاتيبنا التي كنّا نحرّرها لهم في كل اسبوع لتوقفهم على احوالنا كانت انقطعت عنهم فتضبطها البوسطة المحلية. واذ كانت اخبار مذابح اورفا وديار بكر وماطية ومرعش قد انتشرت في جوانب اوربّا غلب الظنّ على اخوتنا في الشام انّنا ايضاً ذهبنا ضحايا تلك المشاغب فخابر رؤساؤنا السفارة الفرنسوية في استنبول ليعلموا ما حلّ بنا فسعت السفارة بالامر وراجعت المقامات الايجابية دون ان تنال بصددنا المعارمات الشافية. فشاع الخبر انّنا قُتلنا وقرأنا ذلك في الجرائد الاوربيّة عند وصولنا الى الهند. امّا نحن فكنّا في الاطمئنان التام لم نجد شمرةً عن الخطّة التي سبقنا الى تحديدها ما عدا سفرنا الى الجزيرة كما رأيت

ثم صرفنا مدّة اقامتنا في الجزيرة لتفقد آثارها وزيارة ارباب طوائفها

الجزيرة مدينة وسطى مركز قضاء لاحقة بسنجق ماردين في لحف جبل الجودي الذي يزعم العرب انهُ الجبل الذي فوقهُ قرّت سفينة نوح بعد نهاية الطوفان. وقد دُعيت بالجزيرة لانّ نهر دجلة يحدق بقسم منها على شبه الهلال وهي في وسط رستاق مخصب واسع الخيرات. والعرب يدعونها جزيرة ابن عُمر وهو احد بني تغلب ولعلّهُ حسن بن عمر بن خطّاب التغلبيّ على ما روى ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٧١). فهذا كان يملكها فعمل لها خندقاً اجرى فيهِ الماء ونصب عليهِ الرحى فاحاط الماء بها من جميع جوانبها فنُسبت اليهِ. وكانت الجزيرة تسمّى ايضاً بازبدى اشتقوا اسمها من السريانيّة بيت زبدى (ܒܝܬ ܙܒܕܝ) او (ܒܝܬ ܐܘܡ ܐܚܘܗܝ)

ودعوها ايضاً باقردى (ܒܝܬ ܩܘܕܘ) نسبةً الى جبل قردو وهو الجوديّ. وقال البعض انّ بازبدى وباقردى قريتان كانتا متقابلتين الاولى في غربي دجلة والثانية في شرقيهِ. وروى ياقوت لشاعر فيها قولهُ يفضلها على بغداد :

بقردى وبازبدى مصيفٌ ومربعٌ وعذبٌ يحاكي السلسبيل بَرُودُ
وبغدادُ ما بغدادُ امّا تراجا فحمّى واما بَرْدُها فشديدُ

والجزيرة سبقت تاريخ الميلاد ورد ذكرها في جغرافية بطليموس وهو يدعوها صفا. وكذلك تكرّر ذكرها في تاريخ النصرانية الاولى فانّها كانت في مقدّمة

المدن المتنصرة وكان لها اسقف على كورتها وبعد ان ملكها الرومان مدة صارت في حوزة الفرس حتى فتحها العرب اما اهلها فبعد ان كابدوا لاجل الايمان اشدّ العذابات واستشهد كثيرون منهم في سبيل الدين انتموا في القرن الخامس الى البدعة اليعقوبية وبقوا على ذلك الى القرون المتأخرة حيث عادت الكثلكة واناروا قسماً من اهل تلك البلاد. واهل الجزيرة اليوم مع القرى المجاورة التابعة لها نحو ١٢٠٠٠ نفس يقسمون ثلاثة اقسام ثلث منهم مسلمون وثلث ارمن غريغوريون ويعاقبة وبروتستانت وثلث كاثوليك من الكلدان ثمّ من الارمن واقلّ منهم السريان. وللآباء الدومنيكان في الجزيرة رسالة فتحوها سنة ١٨٨٤ سنتين بعد فتحهم لدير سعرت ولهم هناك مدارس عامرة للصبيان والبنات وكان يعلم في مدرسة الصبيان وقت سفرنا احد تلامذة مدرستنا الاكليريكية في بيروت

وفي الجزيرة عدّة مآثر قديمة دينيّة ومدنيّة. فمن ابنيتها القديمة قلعتها الشيّدة بالحجارة العاديّة السوداء البركانيّة والبيضاء الصلبة. لها مدخل فخيم يعلوه اسدان منقوران في الصخر. وهي اليوم خراب. وكذلك خرب سورها الحصين الذي كان محدقاً بها واستولى الدمار على جسر كبير كان ممتدًا فوق النهر ترى على جوانبه تمثال اسدين آخرين مع صورة منطقة البروج وكتابات عربيّة واقية على ما يظهر الى اواخر القرن الثالث عشر كما ترى في قلعة حلب التي سبق وصفها في المشرق (٢ : ١٨— ٢٠) وللمسلمين في الجزيرة جامع قديم بني قسمٌ منهُ بأنقاض ابنية عاديّة. وفي ضواحي الجزيرة آثار اخرى منها ما يرتقي الى عهد ملوك الفرس ومنها ما هو اقدم زمناً خلّفهُ ملوك اشور كبعض كتابات بالقلم المساري. اما الآثار الدينيّة فمنها كنيسة الكلدان الكاثوليك واليعاقبة وكلتاهما من طرز الكنائس السابقة لعهد الاسلام يُنزل اليها في بطن الارض كالاسراب وفيها النقوش القديمة والسواري الضخمة. والكلدان في هذه السنين الاخيرة قد رمّموا الكنيسة وفتحوا لها النوافذ وزيّنوها بآنية التقديس. وزرنا سيادة اسقفهم هناك السيّد يعقوب اوراهام الذي يرعى ابناء طائفته بالتقى منذ سنة ١٨٨١ ولا يزال مواصلاً لهمّته حتى اليوم

اما السريان الكاثوليك فقد ابتنوا لهم كنيسةً صغيرةً في عهد اوّل اساقفتهم هناك السيد فلابيانوس بطرس متاح سنة ١٨٦٥. وكان اسقفهم عند مرورنا السيد

يعقوب متى احمر دقته الطيب الذكر تشرفنا بزيارته في ماردين حيث تواعدنا على الاجتماع في الجزيرة وهو في اهبة الرجوع اليها لكنَّ الاضطرابات التي حصلت وقتئذٍ اضطرَّتهُ الى البقاء في ماردين وفيها استأثر الله به سنة ١٩٠٨ بعد ان تولَّى نيابتها البطريركيَّة نحو ٣٠ سنة

وللارمن ايضاً في الجزيرة كنيستان الواحدة للغريغوريين والأُخرى للكاثوليك وهما متوسطتان في الكبر حسنتان

اما الآباء الدومنيكان فهتمون بكل الاعمال الرسوليَّة في الجزيرة والقرى المجاورة ففي عهد رئيسهم المفضال الاب غزالس دوفال اتَّسعت الرسالة الدومنيكانية الى سعرت والجزيرة وطور عبدين. وفتح بمساعيه المشكورة هناك عدَّة مدارس للاحداث. ويساعد المرسلين راهبات دومنيكيات لتهذيب الفتيات والاهتمام باليتامى ولهنَّ مستوصف في الجزيرة يؤدين فيه خدماً عظيمةً لاهل تلك الانحاء المحرومين من الاطباء والصيادلة لاسيما ان الجزيرة تكثر فيها الحمَّيات لاستقاع مياه دجلة في بعض جهاتها. فهذه الخدم المتنوِّعة قد اثَّرت في قلوب كثيرين من اليعاقبة والغريغوريين وبهمَّة المرسلين قد نما عدد الكاثوليك

بُعيد الظهر من يوم الجمعة الواقع في ٨ تشرين الثاني شكرنا الآباء الدومنيكيين على ضيافتهم ثم سرنا في وجهة الموصل فقطعنا دجلة على جسر من القوارب المتلاصقة ورقينا في الجبال المشرفة على وادي دجلة فكنَّا نسرِّح النظر في تلك المزارع المخصبة والحدائق الغناء والاشجار الوارفة الظلال. وبعد خمس ساعات حللنا عند غروب الشمس في قرية نهروان فبتنا في منزل احد سكانها. ونهروان هذه كثيرة المياه نامية الخيرات. فيها نصارى من السريان الكاثوليك واليعاقبة. وقد وجدوا في جوارها مناجم من الفحم الحجري فاستثمرتها شركةٌ وطنيَّة مدَّةً ونقلوا الفحم الى بغداد ثمَّ اهملوها لكلف نقل الفحم وتعدينه

وفي غلس يوم السبت بعد صلاتنا سرنا في سهول واسعة وعلى شمالنا تنتصب جبال كردستان الآهلة بجيل الاكراد وكان يمتاز بينها جبل يرى عن بُعد كانهُ شبه سفينة فذاك الجودي او جودي داغ الذي يرتأي العرب انَّ عليه نزلت سفينة نوح. والثلج يغطيه في اكثر شهور السنة. وكان هناك قديماً دير للناطرة تُرى حتى اليوم

بقايا من ابنيته كان يدعى دير السفينة ورد ذكرُ حريقهِ سنة ٧١٦ للميلاد في التاريخ المنسوب لديونيسيوس التلمحري (راجع المكتبة الشرقيَّة للسمعاني ج ٢ ص ١١٣) ولعلَّ الآثار التي توجد هناك الى يومنا هي من الدير المذكور فيزعم مكتشفوها انَّها من بقايا سفينة نوح. وفي معاطف الجبل قصر كان يدعى قديمًا قصر ثمان او ثمانين (Ὀγδοήκοντα) فزعم بعض الكتبة انهُ دُعي بذلك لان الثمانية الناجين من الطوفان اختاروه بعد خروجهم من السفينة

وفي ذلك اليوم دخلنا في ولاية الموصل التي كان اهلها حاصلين على الامان بينما كانت دماء النصارى تهراق سيولًا في الولايات الغربيَّة والشماليَّة كحلب وديار بكر ومعمورة العزيز ووان وبتليس فاستحقَّ عبد الحميد ان يُدعى لاجلها بالسلطان الدموي

وولاية الموصل متسعة يبلغ تكسير مساحتها ٧٥,٧٠٠ كيلومتر مربع يحدُّها في الشمال ولايتا وان وديار بكر وفي الجنوب ولاية بغداد وفي الغرب متصرفيَّة الزور. اما في شرقيها فتخوم العجم. يبلغ عدد اهلها نحو ٣٥٠,٠٠٠ النصارى منهم نحو ٥٠,٠٠٠ والباقون مسلمون ونحو ٢٠,٠٠٠ من اليزيديَّة والشبك والباجوران والصابئيَّة الذين ذكرهم المشرق (٥ (١٩٠٢) : ٥٧٧)

عند هاجرة النهار اشرفنا على مدينة زاخو الواقعة بقرب نهر الخابور المعروف بالخابور الصغير من روافد دجلة وهو المذكور في نبوَّة حزقيال فالنهر هناك ينقسم قسمين على شبه حلقة كبيرة وزاخو في وسط الحلقة اي في جزيرة الَّا بيوت النصارى منها فهي مبنية على ضفة النهر الشماليَّة حيث كنيسة الكلدان الكاثوليك وهناك نزلنا في ضيافة مطران زاخو السيد تيموثاوس المقسي المعروف بفضلهِ وسعة معارفهِ وهو احد المتخرجين في مدرسة انقشار الايمان الشهيرة. قضينا في دارهِ الاسقفيَّة ليلةً عددناها من اسعد ساعات سفرنا. وقد اطلعنا سيادتهُ على بعض المآثر الادبيَّة التي امكنهُ الحصول عليها عند الفاطرة وافادنا اشياء كثيرة عن تاريخ تلك الجهات واحوال اهلها وسيادتهُ مولود في القوش وطن كثيرين من مشاهير الكلدان وكان تولى رعاية ابرشيَّة زاخو قبل وصولنا بثلاث سنوات وهو الى اليوم يتفانى في خدمة اهلها

الكلدان البالغ عددهم في زاخو وضواحيها نحو ٤٠٠٠ نسمة ليس نصارى غيرهم الا قليل من السريان الكاثوليك

زاخو مدينة قديمة كما يظهر من بقايا حصن قديم يحدق به القسم الايمن من الخابور وقد بقي من الحصن برج مثمن الزوايا متين البناء قد استولى الخراب على داخله. ومن المحتمل انهُ من عمل الفرس. وهناك ايضاً نادٍ واسع ذو نوافذ واعمدة ونقوش منقورة على جوانبهِ قد اتخذتهُ الحكومة كمقام لفرقة من جنودها

ومع قدم مدينة زاخو لا تجد لها ذكراً في التاريخ ولا في معاجم البلدان وقد ظنَّ البعض انها هي بلدة الحسنيَّة المجاورة التي اشار اليها المقدسي وياقوت لكنَّ رأيهم ليس راهناً. واسم «زاخو» كلداني معناه الانتصار وفيهِ دليل على موقعة جرت هناك فدعاها الحزب المنتصر بهذا الاسم

والكلدان الكاثوليك في زاخو كانوا قديماً نساطرة فارتدُّوا على ايدي المرسلين الدومنيكان وفي زاخو مدفن احدهم الاب سولديني المتوفى سنة ١١٧٩

اما ابرشية زاخو فحديثة العهد كما اثبتهُ سابقاً حضرة القسّ بطرس نصري (في المشرق ٩ (١٩٠٦): ٦٨٩) وعدَّ هناك الاساقفة الخمسة الذين نُصبوا على هذا الكرسي منذ السنة ١٨٥٩

وفي صباح اليوم التالي الموافق ليوم الاحد جاء اهل زاخو ليسلِّموا علينا وحضر كثيرون منهم قدَّاسنا ثمَّ ودعناهم في ضحى النهار قاصدين قرية مار يعقوب ودَيرها للآباء الدومنيكان (لهُ تابع)

مطبوعات شرقية جديدة

Die Weisen Narren des Naisaburi. Inaugural-Dissertation z. Erlangung d. Doktorwürde von Paul Loosen. *Strassburg, K. J. Trübner*, 1912, p. 47

كتاب اخبار عقلاء المجانين

كثيراً ما تجد في كتب أدباء العرب فصولاً في حِكم وردت على ألسنة المجانين واخباراً من سيرهم من شأنها ان تكون عبرةً للعقلاء. بل صنَّف بعضهم كتباً في هذا الصدد منها كتابان صيرا على آفات الدهر الواحد منسوب لابي الازهر محمَّد بن